



الخميس 25 نوفمبر 2021 11:17 م
د. حلمي القاعود

اشتعل الغضب الاجتماعي عقب الحوادث المؤلمة غير المسبوقة في المجتمع العربي المسلم الذي اشتهر بالطيبة والتسامح والرضا، وتعددت أخيراً الحوادث الدامية الشاذة التي صنعها عنف أهوج لم تعرفه البلاد من قبل في ظل ثقافة التهويد، فأثار موجات الاستنكار في جميع الأرجاء، جرائم داخل الأسرة الواحدة وبين الأقارب والجيران وفي المدارس والجامعات، في البيوت والشوارع وأماكن العمل، وافتقد الناس الأمان، أسباب العنف المباشرة نافهة، أو بسيطة يمكن حلها بشيء من التفاهم والوساطة، ولكن الواقع مخيف ومرعب، شجار بسيط يتحول إلى قتل، خلاف على مبلغ قليل أو ميراث ليس بذي قيمة كبيرة ينتهي بدماء ذوي الأرحام، مزاح يتحول إلى ذبح وإصابات بالغة تصنع المصابين على حافة الموت.

غيض من فيض

جريمة قتل بشعة شهدتها محافظة كفر الشيخ، حيث أقدم ثلاثة طلاب بالصف الثاني الثانوي على ذبح زميلهم، بسبب خلافات بينهم عقب تتمرهم عليه في أثناء توجهه لدرس خصوصي.

العثور على طالبين انتحرا شناً بغرفة فندق في الإسكندرية وتركوا رسالة يقولان فيها: زهقنا من حياتنا!

بعد حادثة الإسماعيلية، شقيقان يمزقان جسد شاب بالساطور وسط المارة في أبو صوير!

رجل يشعل النار في ابن شقيقه بسبب 20 جنيهاً في حدائق القبة، وأشقاء الضحية يتحدثون.

عروس قبل ليلة الزفاف تفاجأ بشقيقها يشعل فيها النار وتتحول إلى هيكل محترق من أجل خلاف على ميراث بسيط!

رجل قارب الستين يقطع رأس أمه التي بلغت التسعين من أجل فدان زراعي يريد لها أن تكتبه له دون إخوته، ويضع جسدها في شوال ويلقي به في أحد المصارف، ويبلغ الشرطة عن غيابها!

طالبان يقفان أمام بوابة إحدى الكليات، وليثبت أحدهما للآخر أنه أقوى منه، يضربه بكثر فيقطع نصفين!

ضباط مباحث الإسكندرية ينجحون في القبض على الابن المتهم بارتكاب واقعة قتل والده العجوز وأمّه المسنة داخل سكنهما بمنطقة الحضرة الجديدة.

تمثيل بالجثة

اهتز المجتمع بعد الجريمة غير المسبوقة في أحد شوارع الإسماعيلية وفي عز النهار والناس يمضون غادين رائحين، يقتك الجاني بصديقه ويقطع رأسه ويفصله عن الجسد، ويمثل به وهو يحمل في الشارع، ويضرب بالساطور من يقترب منه وقد أصاب اثنين آخرين، والناس تشاهد التمثيل بالجثة، وتكتفي بالتصوير دون أن تحاول منع المجرم الذي لا يكتفي بجريمته بل يتهم الضحية كذباً أنه اغتصب أمه وأخته، والضحية كهل مريض بالكبد ولديه سبعة أبناء، ثم ينفي الجاني هذه التهمة فيما بعد عندما حاصره المحققون بالحقائق!

هذه الجريمة استنفرت المجتمع وكتابه ورجال الدعاية ووسائل التواصل الاجتماعي -باستثناء المثقفين المنهويين- استنكاراً لها، وتساوياً عن أسبابها، ومحاولة الإجابة عن سؤال: لماذا توحش المجتمع الطيب المتسامح الذي اشتهر بحملة: الله يسامحك؟!

لقد أعلنت النيابة العامة تفاصيل تحقيقاتها في الواقعة التي سميت بقضية «سفاح الإسماعيلية»، فوصفتها بالجريمة البشعة، التي قام فيها المتهم بالانقضاض بالساطور على أحد الأشخاص «عامل» في شارع طنطا بالإسماعيلية، وقام بفصل رأسه عن جسده وتجول به في الشارع وسط ذهول الأهالي، وأصاب اثنين آخرين، وقررت النيابة حبس المتهم 4 أيام، جردها قاضي المعارضات إلى 15 يوماً على ذمة التحقيقات.

المواد المخدرة

وسألت النيابة العامة المصابين الآخرين المجني عليهما، وخمسة شهود آخرين، فتوصلت من حاصل شهادتهم إلى اعتبار المتهم تعاطي المواد المخدرة، والتقاءه يوم الواقعة بالمجني عليه، حيث دار بينهما حوار لدقائق انتهت بارتكاب المتهم جريمته، وأفصح للمارة خلال اعتدائه على المجني عليه عن وجود خلافات سابقة بينهما ليتراجعا عن الدؤد عنه (!)، ثم تعدى على اثنين من المارة أحدهما على سابق علاقة به، فأحدث بهما بعض الإصابات وحاول الفرار من محل الواقعة إلا أن الأهالي طاردوه حتى تمكنوا من ضبطه.

وباستجواب المتهم فيما نُسب إليه من قتل المجني عليه عمداً مع سبق الإصرار والترصد واقتران تلك الجناية بجنايتي الشروع في قتل المصابين الآخرين، أقرّ بارتكابه الواقعة وتعاطيه موادّ مخدّرة مختلفة صباح يوم حدوثها وحدد أنواعها، وعلى هذا أمرت النيابة العامة بحبسه احتياطياً أربعة أيام على ذمة التحقيقات، وقررت اتخاذ الإجراءات اللازمة بيئاً لمدى صحة وسلامة حالته النفسية والعقلية لما تردد بخصوص هذا الشأن على خلاف ما ظهر من ائزان المتهم خلال التحقيقات وإعادة تمثيله ومحاكاته كيفية ارتكابه الواقعة، وجدد قاضي المعارضات حبسه احتياطياً خمسة عشر يوماً على ذمة التحقيقات.

وأشارت النيابة العامة إلى أنها تعلم حجم الفاجعة التي حاقت بالمجني عليهم وذويهم، كما تعلم ما ضاقت به صدور المواطنين من مشاهد تلك الجريمة البشعة التي لا يُبرر ارتكابها أو غيرها من الجرائم أيّ دافع مهما كان.

وذكر شقيق الضحية أن الجاني تربى في بيتهم وأنه كان قريباً منهم، وقال: إن أسرته ساعدته في دخوله مصحة بمحافظة الإسماعيلية لإدمانه مخدر الأستروكس وأنه تم التعافي منه، كما أعلنت أسرة الضحية أنها لن تتقبل العزاء فيه، ولاحظ الجيران والقريبون منهم أنهم لم يبكوا، مما يعني أن هناك انتظاراً لحكم القضاء بإعدام الجاني أو ترتيباً للأخذ بالنار، وتلك مشكلة أخرى، تجلت بوادرها بمغادرة أسرة الجاني المنطقة بعد انتشار فيديوهات وصور جريمة ابنهم المسمى عبدالرحمن والشهير بـ"دبور".

وسائل العلاج

تناولت الصحافة والإذاعة والقنوات ومواقع التواصل والكتّاب والخبراء القضية بالتحليل والتفسير وبيان الأسباب والدوافع، واجتهدوا في محاولات وضع وسائل العلاج والمقاومة لهذا العنف غير المسبوق، وخاصة في مجال الأسرة الواحدة والجيران والأصدقاء.

وقد تركزت معظم الآراء التي أزعجت الحوادث الشاذة حول ابتعاد المجتمع عن الدين وتجريف القيم العليا للإسلام، وغياب الكليات الشرعية الخمس المهمة عن الوعي العام، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، لقد أدى ذلك إلى توحش المجتمع، وانتشار الفوضى، واستسهال إراقة الدماء، ولو كانت دماء أقرب الناس، وصارت العلاقات تقوم على أن يقتل القوي الضعيف ويسحقه ظلماً وقهراً، مع اختفاء التراحم والتسامح، وموت المشاعر الإنسانية وتفكك عرى الأخوة والقرابة والإنسانية.

ثم هناك انسداد للأفق العام، وبشراصة الضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي تحول دون اندماج الناس في الأعمال المثمرة وطنياً وقومياً وإنسانياً، فالحركة في إطار الدين أو العمل العام محفوفة بالمخاطر والمخاوف، لدرجة أن الأكثرية الساحقة من الناس يرددون القول الموروث "امش جنب الحيط"، هذا الانغلاق العام أدى إلى العزلة والتفوق، والبحث عن قطع الوقت والفراغ وعلاج البطالة بالإدمان والغياب عن الواقع، أو الانتحار بوسائل مختلفة، وقد نقل عن الرسالة التي تركها الطالبان المنتحران في أحد فنادق الإسكندرية قولهما: "لا مكان لنا في عالم مليء بالكذب والنفاق والعنف!"

منصات لا تعمل

إن النوم في الغيبوبة المصطنعة بالمخدرات والإدمان دفع أعداداً غفيرة من الشباب إلى البحث عن المخدرات أو تصنيعها من الأدوية وغيرها، وصارت تجارتها من أكثر أنواع التجارة عائداً، ويجري البيع والشراء جهاراً نهاراً، لأن الأجهزة المعنية مشغولة بما يسمى الأمن السياسي، فلو سمعت هذه الأجهزة إشاعة أو خبراً رائفاً عن شخص ينتمي إلى جماعة معارضة، فإنها تهب على الفور وبسرعة الصاروخ، للقبض عليه لمعرفة ما وراءه.

أما ما يتعلق بالمخدرات والجريمة عموماً فإنها تتحرك تحركاً بطيئاً وئيداً، صحيح أن هناك جهوداً لمكافحة المخدرات، ولكنها ليست على المستوى المطلوب، لقد انتشرت المقاهي والكافيهات، وما يشبهها في القرى والنجوع، فضلاً عن المدن، انتشار النار في الهشيم، ومعظمها إن لم يكن كلها يفسح مجالاً لتناول المخدرات بأنواعها وتداولها وبيعها، فقد صارت مكاناً مفضلاً للفارغين والعاطلين.

المؤسف في الأمر أن أحداً ممن يطالبون بزيادة جرعات التدخين، وكأن هناك تدين أصلاً (الاستثناء يثبت القاعدة)، يتجاهلون أن منصات تعليم الإسلام لا تعمل، أو تبت مواد تصب في مجرى العنف والانحلال والفوضى والإلحاد وموت الضمير!

ولو تأملنا بعض المنصات الرئيسية وما يصدر عنها لتأكدنا أن العنف القائم غير المسبوق، نتيجة لتوقفها عن العمل، أو لجمودها، أو لتأدية وظيفة معاكسة.

المنصة الأولى: التعليم:

لا ريب أن سبعين عاماً مرت بالبلاد شهدت تحولات خطيرة في مجال النظر إلى الإسلام وتعليمه ونشر قيمه وأخلاقه ومعطياته الإنسانية، فقد عشنا الشعوبية والقومية والاشتراكية، ثم الانفتاح غير المدروس على الغرب وقيمه السلبية، وانبهرنا بما يقال عن الحداثة والتنوير والعولمة، وتاهت في الطريق هويتنا الإسلامية التي تهضم كل ما هو مفيد وخير في الحضارات القديمة والمعاصرة.

كانت غاية الحكومات المتعاقبة الحفاظ على السلطة بأي ثمن، ولهذا طاردت الإسلام ولاحقته في صور متعددة بوصفه العنصر المزعج الذي يسبب لها المتاعب لأنه يذكّر بقيم العدل والمساواة والإحسان والشورى والمشاركة، ولعل أبرز صور المطاردة كانت عبر منصة التعليم، فجاء تطوير الأزهر -وهو حق أريد به باطل- ليسمح بانتساب طلاب لا يحفظون القرآن الكريم -أساس تعليمه وأس منهجه- وبغير دراسة وافية تم تحميل الطالب مقررات مدارس التعليم العام بجانب المقررات الأزهرية فثقل الحمل على الطلاب الذين نفروا منه وغادروا حرمة الطاهر إلى مؤسسات أخرى، مما اضطر إدارات الأزهر المتعاقبة إلى تخفيف المقررات الشرعية واللغوية، فلم يبق منها شيء مؤثر، مع افتقاد حفظ القرآن الكريم، واضطرت المعاهد الأزهرية في بعض المراحل إلى ملء الفراغ الذي حدث بسبب فرار الطلاب إلى قبول طلاب التعليم العام الضعفاء الذين رفضتهم مدارس التعليم الثانوي والفني، وهو ما زاد الطين بله، فرأينا خريجين يقفون على المنابر لا يحسنون اللغة ويخطئون في تلاوة الآيات والأحاديث، وليست لديهم بضاعة علمية أو قيمية، ويبقى الوضع على ما عليه حتى الآن، وقرأ نتائج (الإعدادية والثانوية) تجدها في غاية التذني، والناجحون فيهم نظراً!

مادة صورية

أما التعليم العام، فقد أُلغيت حصص تحفيظ القرآن، ثم هُمّشت مادة التربية الإسلامية تهميشاً كاملاً من حيث المحتوى والمستوى، ثم صارت مادة لا وجود عملياً لها، حيث لا تضاف إلى المجموع بنائاً، ويقوم الطلاب عقب امتحانها الصوري بإلقاء كتابها في حاويات الزباله أو الطرقات، وجاءت جائحة كورونا لتدفع المسؤولين في التعليم للإعلان بجرأة غير مسبوقه إلغاء الامتحان الصوري في التربية الإسلامية!

لا تعليم للإسلام هناك!

يتخرج الطالب وهو لا يعلم شيئاً عن الإسلام بمفهومه الصحيح، وينتهز المثقفون المتهودون الفرصة ليتكلموا عن التشدد والتطرف والإرهاب، ويستغلون تعليقات بعض البسطاء في وسائل التواصل الاجتماعي لإدانة الإسلام والمسلمين جميعاً!

الأدهى من ذلك أن الجامعات لا تلقي بالاً إلى المفاهيم الإسلامية في مقرراتها، وبعض الجامعات تقدم أساتذة في الدراسات الإسلامية لا يحفظون القرآن الكريم، ولا يمثلون قدوة للمسلم الصالح، كما تتاح الدراسات العليا لطلاب لا علاقة لهم بالذكر الحكيم، ومن عجب أن تضم أقسام اللغة العربية التي يفترض أن تكون حصناً للإسلام وقيمه، نفراً من الأساتذة الذين يؤمنون بثقافة التهويد والتغريب أكثر مما يؤمنون بثقافة الإسلام ومفاهيمه!

المنصة الثانية: الإعلام:

وأسميها الإعلام تجاوزاً للتسهيل، فهو دعاية فجة للحكومات والمسؤولين، ومنصة لتصدير الهجوم على الإسلام وقيمه باسم التنوير والحداثة والتقدمية، ونعت الإسلام بالظلامية والرجعية والجمود والتخلف، والدعوة إلى نبذ الوحي، ورفض الإسلام، وتقبل القيم الغربية.

ولا يقولن أحد: إن هذه المنصة تقدم برامج دينية تتناول قضايا إسلامية، فهذه البرامج محدودة جداً، وبعضها غير مؤثر لصعف مقدميها أو قصورهم الفكري، وحديثهم عن قضايا هامشية لا أهمية لها، واعتمادها على فتاوى تدور في معظمها حول أمور شخصية ثانوية، ثم إن هذه البرامج تبت فيما يسمى الأوقات الميتة أي التي تقل فيها نسبة المشاهدة أو تنعدم، وتأتي وسط طوفان من المواد الفاسدة التي تعادي الاستقامة والهوية وتطرح دعاية فجة

لغنائ هاشية غير منةة؁ وامل مئلاً ءصمص ساعاء لمسلسلال وأفلام ولقاءاء مع من يسمونهم بالفنائن لئناقش معهم قضايا شخصية نافهة لا لهم المشاهدين.

إن المواء الءرامفة على شاشة القنوااء ءؤسس لعمقق صوره البلطجي والفهلوي والقبعق والبذفة والمءفحش واللس الذكف والمرأة المسءرولة الاء ءءوق فف الرءح والبذاءة وسوء العشرة؁ والراقصة الاء ءقوم ببطولااء وطفنة وهف لا ءعرف ما هو الوطن ولا ءفهم منه غير ما فعود علفها من أموال وشهرة وءعافة! وما بالك بأفلام ومسلسلال ءصور ءروباً بفن المواطفن فف الأءفاء الشعبفة كأنها قءال مع ءولة معاءفة؁ ءفء ءفءفر أنابفب الغاز؁ واسءءام السفوف والسنج والسواطفر والسكاكفن وغفرها! أفسء هءه هف القءوة السفئة الاء فقدمها ما بفسمف الإعلام للأءفال المفرعة من كل قفمة إسلامفة وءافة نبفلة؟

المءهوءون!

ومن المؤسف أنه فف الوقت الءف بئءفض ففه المءءمع ءفاعاً عن نوابءه وقفمه الإسلامفة؁ بفهض مئقفو الءهوبء والءغرب؁ لفءرفوا الأنظار إلى اءءاه آءر بفال من الإسلام والمسلمفن؁ ففءءءون عن الءطرف والإرهاب بوصفه سبباً لإءرام البلطافة والقءلة فف الشوارع.

ءء مئلاً رأف بوق مءهوء فف الءمئفل بءئة الضءة الإسماعلفة؁ إنه بفهم أبناء الءركة الإسلامفة بأنهم أول من اسءءم السفوف والسنج لإسكااء المعارضفن! ونسف الكذاب المأءور أن اسءءام السفوف والسواطفر أمر نئشأ مع البلطافة والقءونة فف بعض الأءبان الشعبفة منذ زمان بعفء؁ ولكنه كان مءءوفاً.

واءة مءهوءة ءسءغل ءءئاً مربباً قام به آءء الأشخاص قفل: إنه برفء أن فءمر أسوء كوبرف قصر النفل؁ وءم القبض علفه قبل أن بفءء ءرفمءه؁ فءسءصرء المءهوءة الءهفاء المسؤولة لأنه فف زعمها كان بهءف: الله أكبر؁ الله أكبر! وءطالب بالضرب بفء من ءفء على فء المءطرففن الإرهابفن الءهلاء؁ وكأنها ءقول: ءونكم الإسلام وشعاره "الله أكبر" فاسءأصلوه سرفباً.

أهل "الءوك ءوك"!

ءوءش المءءمع مسؤولة مشءركة بفن أطفاف المءءمع؁ ءكاماً ومءكومفن؁ وعلفهم إن كانوا مءلصفن أن بفءامنوا بفءء الأسباب الءقففة لإءلال السلام فف الشارع الءف فءكمه أهل "الءوك ءوك" أو البلطافة والإءمان؁ بقفمهم المنءرفة ووءوءهم السرطاني الءبء.